كليـــة التربية للعلوم الانسانية
College of Education for Human Sciences

ISSN: ١٨١٧-٦٧٩٨ (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.com

JTUH
مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية
Journal of Tikrit University for Humanities

Counseling and Psychological Counseling in Ancient Arab Criticism An Analytical Study

Dr. Adnan Masha'al Rasheed

College of Law and political Science
University of Al-Anbar

***Keywords*:**
Counseling and Psychological Counseling
an introduction

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received ١٠ Jun. ٢٠١٦
Accepted ٢٢ January ٢٠١٦
Available online ٠٥ xxx ٢٠١٦

A B S T R A C T

The adviceness and the psychological counseling in ancient Arabic criticism is considered as critical syllabus that deals with
the treatment of creative text in that age. the research shows that the poetic creativeness is hidden in the fancy of mind.
The creativeness is exclusive in selecting time in which its activity is available with presenting of the heart. Moreover its motives that motivate the slower and prompt the affected one. So the critics did their best to rouse from it in order to apply for creating good text

© ٢٠١٨ JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/١٠.٢٥١٣٠/jtuh.٢٥.٢٠١٨.٠٥

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of

النصح والارشاد النفسي في النقد العربي القديم دراسة تحليلية

د.عدنان مشعل رشيد

جامعة الانبار/ كلية القانون والعلوم السياسية

الخلاصة:

يعد النصح والارشاد النفسي في النقد العربي القديم ، منهجاً نقدياً قائماً على معالجة النَّص الابداعي في ذلك العصر، اذ أبان هذا البحث بأنَّ الابداع الشعري يكمن في هوى النفس، وانَّ الابداع ينحصر في اختيار الوقت الذي يتوافر فيه نشاطها مع حضور القلب، فضلاً عن دواعيه التي تحث البطيء وتبعث المتكلف، لذلك سعى النقاد الى التنبيه عليها، بغية الأخذ بها من أجل ابداع جيد ونص رصين.

* *Corresponding author: E-mail* : adxxxx@tu.edu.iq

مقدمة

لم يكن المنهج النفسي جديداً على الإبداع الشعري، إذ إنَّ المتأمل في تعليقات بعض النقاد يجد الارشاد النفسي حاضراً في ممارساتهم النقدية في تصوير سلوك الشاعر أو مدى تحرره من القيود، ومراعاة لمقام المخاطب، فضلاً عن أثر الأجواء المحيطة به، فقد نظر بعض النقّاد إلى النص في ضوء علم النفس وما اكتشف في مجاله من حقائق ومفاهيم تتعلق بالنفس البشرية وتغيير سلوك الإنسان أو ما يصدر عنه من قول أو عمل، إنَّ الإبداع حالة سلوكية يمكن ردّها إلى صوابها، والأدب تعبير عن اللاشعور عند الإنسان، والناقد معنيٌّ بالكشف عن رموزه ودلالاته إذ هو يحاول أنْ يسلط الضوء على عملية الصنع والإبداع وعلى دلالة العمل الأدبي في نفسية منشئه، وعلى أثر النص في نفس القارئ.

النصح والارشاد النفسي

إنَّ علاقة النقد بالنفس البشرية قديمة وليست وليدة العصر، فصحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ه) من اهم شواهد التراث، إذ عالج فيها بشر علاقة النفس بالإبداع، وقد روى الجاحظ تلك الصحيفة في (البيان والتبيين) ثمّ تناقلها من بعده البلغاء والنقاد وأوردوها في مصنفاتهم، وتناولوها بالدرس والتي هي برمتها « تكشف عن ذلك النصح العقلي الذي توصلت إليه الذهنية العربية في تفسير البلاغة بشتّى السبل واهتمامها بالطاقة الشعورية بمعالجتها قضايا الإبداع في ذلك العصر»(*)، ولعل نظرة فاحصة في تلك الصحيفة تعطينا صورة واضحة عن فهم القدماء للعملية الإبداعية ومراحل تكوينها، إذ يقول بشر في أول تلك الصحيفة: « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإنَّ قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكلّ عين وغرّة، من لفظ شريف ومعنى بديع. وأعلم أنَّ ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول، بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفا على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه. وإياك والتوعّر، فإنَّ التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك»(†)، وبهذا فإنَّ بشراً حصر عناصر الإبداع الجيد في تخير ساعات القول التي يتوافر فيها نشاط النفس وحضور القلب، فذلك يساعد على تذليل الصعب من الأفكار، واستدعاء الأيسر والأسهل من التعبير حتى تكون الصنعة أشبه بالطبع، وترك تعمد الإغراب والمجيئ بالكلام الوعر، فإنّه يؤدي إلى التعقيد، والتعقيد يستهلك المعاني ويشين الألفاظ، فوقت الإبداع عنده وقت علمي يراد فيه الفعل والانتاج، وليس المقياس طول الزمن وقصره، وعوامل الإبداع عنده هي النشاط وفراغ البال، وإجابة النفس. فمهما توافرت للشاعر من موهبة وحس فني ومراس ودربة فإنّه يستطيع أنْ ينظم في كل وقت وكلما أراد، وإنما يجيئ الشعر في أوقات يتوقعها الشاعر أو لا يتوقعها، أمّا إذا وجد شاعر ينظم الشعر في أيّ وقت يشاء من دون جهد أو عناء فإنّ شعره لن يكون على درجة عالية من الإبداع والقيمة الفنية؛ لأنه ما من شاعر إلّا تعرض له فترة لا يقدر فيها على نظم الشعر(‡)، إذ « إن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة»(§). وما الأعمال الفنية إلّا تنفيس عن فائض الشعور والاصطراع الداخلي للفنان أو الشاعر، وانّ « الذين يعانون الإنتاج الفني يقررون بسهولة أنهم طالما أحسوا بالمتعة أو اللذة او السعادة بعد أنْ أتمّوا إخراج العمل الذي يبدعونه وليس هذا ... إلّا نتيجة لقدرتهم خلال هذا العمل على التنفيس عن فائض شعورهم ورغباتهم المكبوتة في اللاشعور»(**)، وقد قيل إنّ الشاعر قديماً كان « يركب راحلته ويطوف وحده في الأماكن البعيدة الخالية؛ وذلك لكي يُهيئ الجو المناسب لقوى النفس أنْ تظفر بالقوافي والكلمات التي تعبر بقوة اكبر من غيرها عن الحالة الانفعالية التي تهيمن على الشاعر»(††)، وروي أنَّ الفرزدق « إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته، وطاف خالياً منفرداً وحده في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية، فيعطيه الكلام قياده»(‡‡).

إنَّ تصور بشر بن المعتمر هذا يتلاءم مع ما يتصوره علماء النفس اليوم حول عوامل الإبداع التي من أبرزها عندهم الطلاقة ويراد بها« المقدرة على إنتاج أكبر عدد من الأفكار الإبداعية»(§§).

ثمّ يوجه بشر بضرورة الوفاء بحق الغرض إذا تصدى له المرء، وضرورة مشاكلة الألفاظ للمعاني عموماً مع التأكيد على ذلك في المعاني النادرة إذ يقول: « ومن راغ معنًى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أنْ تصونهما عمّا يفسدهما ويهجنهما، وعمّا تعود من أجله أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أنْ تلتمس إظهارهما، وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. فكن في ثلاثة منازل، فإن أولى الثلاثة أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، أمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأنْ يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأنْ يكون من معاني العامة. وإنّما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال. وكذلك اللفظ العامي والخاصي»(***). فهو يريد من المبدع أنْ يراعي حال المتلقي من خلال المعنى الظاهر والمكشوف، والقريب المعروف، اي: مناسبة اللفظ للمخاطب، فإنْ أردت أنْ تخاطب الخاصة اخترت لهم لفظاً معيناً، وإنْ أردت مخاطبة العامة اخترت لهم لفظاً آخر. وهذا ما يسمى عند علماء النفس المرونة في التعبير أي « القدرة على تغيير الحالة الذهنية بتغير الموقف»(†††).

إنَّ بشراً يؤكد « أنَّ شرف المعنى واللفظ ليس بأنْ يكون من معاني الخاصة، وليس يتضع بأنْ يكون من معاني العامة، وفي اعتقاده أنْ يكون بإمكان البليغ إفهام العامة من معاني الخاصة ما يدل على تجاوزه القول بجعل الكلام على أقدار المستمعين»(*)، فهو يؤكد أهمية التوصيل والتأثير في المتلقي وعلى أثر المبدع وما يمتلكه من وسائل في هذه القضية، إذ يقول: « فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الاكفاء، فأنت البليغ التام»(†). فمدار الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة، ومع موافقة الحال ومع ما يجب لكل مقام من المقال. وهذا هو جوهر البلاغة الذي أجمع عليه النقّاد والأدباء مبكراً، حتى نجده في شعر واحد من أوائل الشعراء الجاهليين وهو أبو دؤاد الإيادي(‡)، إذ يقول: [من الكامل] الكامل]

يَرْمُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارةً وَحْيَ المَلاحظِ خِيفَةَ الرُّقَباءِ(§)

اذ يعقب الجاحظ عليه قائلاً: « فمدح كما ترى الإطالة في موضعها، والحذف في موضعه»(**)

ويصنّف بشرٌ المبدعين على منازل استناداً إلى قيم العفوية والتلقائية التي تعدُّ الأكثر ارتباطاً بعملية الإبداع، إذ إنَّ صاحب المنزلة الأولى عنده هي في أول وهلة أو نظرة، ولا تكون إلّا بالمواتاة واللطف، أمّا ذلك الإبداع الذي يأتي بعد كدّ وتكلّف فهو عنده في المنزلة الثانية « وهذا الفهم لهاتين المنزلتين يكشف عن إدراك واضح للعمليات النفسية الكامنة وراء فعل الإبداع»(††).

إذ يقول بشر: « فإنْ كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك وفي أول تكلّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تَحُلَّ في مركزها وفي نصابها، ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها، نافرة من موضعها، فلا تُكْرهها على اغتصاب الأماكن، والنزول في غير أوطانها، فإنّك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يعبك بترك ذلك أحد. فإنْ أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لشأنك، بصيراً بما عليك وما لك، عابك من أنت أقلّ عيباً منه، ورأى من هو دونك أنّه فوقك»(‡‡).

إنّ الإجابة والمواتاة عند أول وهلة هي الأساس، فإذا لم يناسب المبدع هذا فعليه بالمنزلة الثانية، أي أنّه لو أدخل الصنعة والتكلف وابتعد عن الطبع عيب على إبداعه الذي إذا كان لا بد منه فعليه أنْ لا يتضجر وأنْ يعاود الكرّة ساعة فراغ باله، أي إلى انَّ تستريح نفسه وتطمئن وتستعيد قواها.

وهذه المرحلة بحسب علماء النفس (مرحلة الاحتضان)، وهي مرحلة « تتيح للمبدع أنْ يحرر تفكيره في إطار النسق القديم الثابت للأفكار والآراء التي تعوق التفكير أحياناً في الأفكار الجديدة التي لا تتفق مع هذا النسق القديم، وكذلك فإنّها تعمل على التقليل من تركيز الانتباه على المشكلة، وممّا يساعد على تفكيك عناصرها وعلى إبراز بعض العناصر من دون غيرها، إذ إنَّ من المعروف أنَّ العدول عن التفكير في مشكلة ما حيناً من الوقت يحرر الذهن من الوجهة القديمة التي كان ينظر بها إلى المشكلة، ويعيد إليه نظارته بحيث يصبح قادراً على إدراك عناصره الجديدة التي برزت في صورة جديدة، عهنا يسطع نور الاستبصار وهو مرادف للإلهام أو لحظة الإشراق»(§§).

وإذا لم تنفع المبدع هذه المنزلة فعليه بالمنزلة الثالثة والذي لا تتعلق بالأدب، ومرادها أنْ يتحول المبدع من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات وأخفّها عليه، إذ يقول بشر: « فإنْ تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض، ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أنْ تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفّها عليك، فإنّك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلّا وبينكما نسب، والشيء لا يحنّ إلا إلى ما يشاكله، وإنْ كانت المشاكلة قد تكون في طبقات؛ لأنَّ النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة»(***).

إن الإبداع لا يقتصر على الأدب وحده بل يشمل ميادين الحياة الأخرى إذا توافرت الرغبة وراحة البال و«الإبداع عند بشر حالة فعل إنساني يباشرها الإنسان بنفسه وتقوم على العمل والصنعة وتحتاج إلى قوة ونشاط وفراغ بال وإجابة نفس وليس الإبداع عند حالة تلقي الإلهام وتقوم على الانجذاب والغيبوبة والاستلاب وتحتاج إلى رقية أو سحر كيما تستحضر»(†††) .

إنّ الإبداع لدى بشر يكمن في هوى النفس، ولذلك يشترط له وقت مناسب وفراغ بال وأنّ « اعلى درجاته ما جاء عفواً ولم يكن متكلفاً ولم يكن فهم بشر للإبداع ذهنياً مثالياً، ولقد استطاع أنْ يعبر عن فهمه للإبداع بلغة تتفق وفهمه العقلي والعلمي»(‡‡‡).

وبهذا نستطيع القول إنّ هذه الصحيفة تدور حول محاور او منازل، وهذه المنازل تعد أركانًا أساسية للعملية الإبداعية والتي أراد بشر من خلالها أنْ يضع لنا قواعد هذا الإبداع ويكشف عن طبيعته وقضايا، فضلاً عن تحديد شروطه ودوافعه.

ومن شواهد التراث أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت ٢٧٦ه) فقد عرض فيه جوانب فنية ونفسية تتعلق بنظم الشعر، فنجده يقول: « للشعر دواع تحث البطيء وتبعث المتكلّف، منها الطمع ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب»(*)، وذكر لهذا أمثلة ومنها قولهُ: « قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخريميّ: مدائحك لمحمّد بن منصور بن زياد، يعنى كاتب البرامكة، أشعر من مراثيك فيه وأجود؟ فقال: كنّا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد»(†)، وقال أيضاً: « وهذه عندي قصّة الكميت فى مدحه بنى أميّة وآل أبى طالب، فإنّه كان يتشيّع وينحرف عن بنى أميّة بالرأي والهوى، وشعره في بنى أميّة أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إلّا قوّة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة»(‡). وذكر أنّ عبد الملك بن مروان قال لأرطأة بن سهية: هل تقول الآن الآن شعراً؟ فقال: كيف أقول وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنّما يكون الشعر بواحدة من هذه»(§)، وذكر الدارسون الدارسون المحدثون أنَّ الشعراء تتباين مواقفهم في الاستجابة لهذه البواعث واندفاعهم إلى قول الشعر بإحداها فمنهم مَن كان باعثه الطمع والرغبة والعطاء مثل الحطيئة، ومنهم مَن كان باعثه غريزة الطرب والغضب مثل أرطأة بن سهية(**) ويخلص ويخلص إلى ذلك حازم القرطاجني بقوله: « أن أمهات الطرق الشعرية أربع هي: التهاني وما معها والتعازي وما معها، والمدائح وما معها، والأهاجي وما معها، وأن كل ذلك راجع إلى ما الباعث عليه الارتياح، وإلى ما الباعث عليه الاكتراث وإلى ما الباعث عليه الارتياح والاكتراث معاً»(††)، وهم في ذلك إنما يحددون العواطف اللازمة لكل فن، فالمدح يستلزم عاطفة الحب والاحترام والرغبة الصادقة في حين أنَّ النسيب بطرب النفس ونشوتها، وامّا الهجاء فتوجهه عاطفة الغضب، ومن دون هذه القواعد أو العواطف لا يكون هناك شعر(‡‡).

هذا وقد وصف ابن قتيبة الأماكن والأوقات التي يصح فيها نظم الشعر، إذ قال: « وللشعر تارات يبعد فيها قريبه، ويستصعب (فيها) ريّضه. ... وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميم (عند تميم) ، وربَّما أتت عليّ ساعة ونزع ضرس أسهل عليّ من قول بيت. وللشعر أوقات يسرع فيها أتيّه، ويسمح (فيها) أبيّه. منها أوّل الليل قبل تغشّى الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير. ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر»(§§). وبهذا أصبح من الثابت الثابت وجود دوافع نفسية لكلّ شاعر تعينه على الإبداع والنظم منها مكانية كما حصل للفرزدق في تميم، وأخرى زمانية مرتبطة بأوقات صفاء البال وراحته، وقد ذكر أنّه « قيل لكثيّر: يا أبا صخر كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف في الرّباع المحلية والرياض المعشبة، فيسهل على أرصنه، ويسرع إليّ أحسنه»(***)، فالصحراء ربما تفتح مكنون النفس، لبعدها عن المؤثرات وتجعل الشاعر مع نفسه لا يسمع شيئاً إلّا ما يدور في خاطره من أعماق نفسه ليحوّلها إلى أجمل القصائد، وذكر أنّه قيل للشّنفرى حين أسر: أنشد، فقال: الإنشاد على حين المسرّة، ثم قال: [من الطويل]

فلا تدفنوني إنّ دفني محرّم عليكم ولكن خامري أمّ عامر

إذا حَملوا رأسِي وفى الرأسِ أكثري وغودر عند الملتقى ثمّ سائري

هنالِكَ لا أرجو حياةً تَسرّني سمير الليالي مبسلاً بالجرائرِ(†††)

وبهذا فهو لا يبتعد كثيراً عمّا أوصى به بشر بن المعتمر حين دعا المبدع إلى اقتناص ساعة النشاط وفراغ البال واطمئنان النفس ونشوتها. وقد فرّق ابن قتيبة بين الشعراء من حيث الطبع وبنى عليه تفاوتهم في إجادة بعض الفنون الشعرية، إذ قال: « فهذا ذو الرّمّة، أحسن الناس تشبيهاً، وأجودهم تشبيباً، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحيّة، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع. وذاك أخّره عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعار غزلان ونقط عروس، وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب. وكان جرير عفيفاً عزهاة عن النساء، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً»(‡‡‡).

ولم يبعد القاضي الجرجاني كثيراً في آرائه النفسية عمَّن سبقه ففي الوساطة حلل الملكة الشعرية وأرجعها إلى الطبع والرواية والذكاء، وجعل الدربة مادة لها يقول: « فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرّز؛ وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان»(§§§).

ويعزو سبب اختلاف الشعر من حسن وقبيح إلى اختلاف الطبائع وتركيب الخلق، إذ قال: إنَّ « سلامة الطبع، ودماثة الكلام بقدر دماثة الخِلقة. وأنت تجدُ ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك، وترى الجافي الجِلْف منهم كزّ الألفاظ، معقّد الكلام، وعْر الخطاب؛ حتى إنك ربما وجدتَ ألفاظه في صوته ونغمته، وفي جرْسه ولهجته»(****).

أمّا عن الحالة النفسية للمتلقي وما يحصل لها من ارتياح وطرب واستخفاف حال سماعها الشعر الرقيق العذب قال القاضي الجرجاني: « ثم تأمّل كيف تجد نفسك عند إنشاده، وتفقّدْ ما يتداخُلك من الارتياح، ويستخفّك من الطرب إذا سمعته، وتذكّر صَبْوةً إن كانت لك تراها ممثّلة لضميرك، ومصوّرة تلقاء ناظرك»(*). فالجودة الأدبية تقاس على أساس تأثير النص في المتلقي، إذ إنّ الناس منذ القدم يرون « أنّ الأدب نوع من الإبانة، وآلة للتواصل الفكري، وانّ نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم»(†).

وقد التفت أبو هلال العسكري إلى أثر الحالة النفسية والذهنية في قوة الشعر وضعفه، ووجّه نصائح للأدباء ألّا يتعبوا قرائحهم الشعرية خوفاً من أنْ تنضب، والتفت بعد ذلك إلى مراحل إعداد القصيدة إذ نراه يقول: « إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك، وتنوّق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك؛ ليقرب عليك تناولها، ولا يتعبك تطلّبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك؛ فإذا غشيك الفتور، وتخوّنك الملال فأمسك؛ فإنّ الكثير مع الملال قليل، والنفيس مع الضّجر خسيس؛ والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الري، وتنال أربك من المنفعة. فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها، وقلّ عنك غناؤها»(‡). فهو يريد من المبدع إحضار المعاني وما يلائمها من الألفاظ قبل الصناعة، فضلاً عن دعوته دعوته إلى استقلال ساعة النشاط قبل أنْ يأتي الفتور والملل، ويرى أنَّ الإبداع لا يأتي مرّة واحدة بل بشكل تدريجي بحسب الراحة النفسية والوقت المناسب، وبهذا فهو يعيد إلى أذهاننا ساعة النشاط وفراغ البال الذي دعا إليه بشر بن المعتمر، وقال أبو هلال: « وينبغي أنْ تجرى مع الكلام معارضة، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته، أو معنى بديع تعلّقت بذيله، وتحذّر أنْ يسبقك فإنه إن سبقك تعبت في تتبّعه، ونصبت في تطلّبه؛ ولعلك لا تلحقه على طول الطلب، ومواصلة الدأب»(§)؛وقد قال قال الشاعر:[من الوافر]

إذا ضَيَّعْتَ أوّلَ كُلّ أمْرٍ أبَتْ أعْجَازُهُ إلّا التواءَ(**)

وقالوا: « ينبغي لصانع الكلام ألّا يتقدّم الكلام تقدماً، ولا يتبع ذناباه تتبّعاً، ولا يحمله على لسانه حملا؛ فإنه إن تقدّم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه والشارد منه. وإن تتبعه فاتته سوابقه ولواحقه، وتباعدت عنه جياده وغرره؛ وإن حمله على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباؤه، ودخلت مساويه في محاسنه. ولكنه يجرى معه فلا تندّ عنه نادّة معجبة سمناً إلّا كبحها، ولا تتخلّف عنه مثقلة هزيلة إلّا أرهقها. فطوراً يفرّقه ليختار أحسنه، وطوراً يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر، ويتناول اللفظ من تحت لسانه، ولا يسلّط الملل على قلبه ولا الإكثار على فكره. فيأخذ عفوه، ويستغزر درّه، ولا يكره أبيّاً، ولا يدفع أتياً»(††).

أتياً»(††).

ويذكر ابن رشيق في العمدة أسباب الخمول والنشاط ممّا يعد نصائح نفسية واضحة، إذ يقول: « لا بُدَّ للشاعر وإن كان فحلاً، حاذقاً، مبرزاً، مقدماً من فترة تعرض له في بعض الأوقات: إما لشغل يسير، أو موت قريحة، أو نبو طبع في تلك الساعة أو ذلك الحين. وقد كان الفرزدق وهو فحل مضر في زمانه يقول: تمر علي الساعة وقلع ضرس من أضراسي أهون علي من عمل بيت من الشعر»(‡‡). فهو يشير إلى أنَّ الشاعر مهما كان فإنّ ساعاته ليست واحدة، فمنها ما يبدع الشاعر فيها ومنها ما ما يتوقف إبداعه، وهو بهذا يعيد إلى أذهاننا وصية بشر حين ركّز على ساعة النشاط وفراغ البال، والتي تغني عن وقت طويل. وقد ذكر « إنّ للناس فيما بعد ضروباً مختلفة: يستدعون بها الشعر، فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر، وتلين عريكة الكلام، وتسهل طريق المعنى: كل امرئ على تركيب طبعه، واطراد عادته»(§§)، فحالات الشاعر النفسية وأوضاعه الشخصية تؤثر في إبداعه ومدى إجادته، فعلى الشاعر أنْ يعين قريحته بما يلائمها ويهيئ لها الجّو المناسب للنشاط والعمل.

وقد روى ابن رشيق وصية أبي تمام للبحتري إذ قال: « تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر»(***). يريد تخيّر الوقت الذي تكون فيه النفس في قمّة قمّة تأليفها والقلب في غاية صفائه ولا سيَّما وقت السحر، وهذا يشبه إلى حد كبير العنصر الأول من وصية بشر بن المعتمر وإنْ اختلفت الصياغة. ثم أوصى بتخير الألفاظ والمعاني التي تناسب أغراض أو مقاصد الكلام، يقول أبو تمام: « فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رشيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، وإذا أخذت في مدح سيد ذي أياد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبنْ معالمه، وشرف مقامه»(†††)، ثم أوصى بالأخذ من المعاني المعاني بمقدار الحاجة وتجنب العويص المجهول، إذ قال: « وتقاض المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرزية»(‡‡‡) ثم وجّه بضرورة مشاكلة الألفاظ للمعاني إيجازاً وإطناباً إذ قال: « وكن كأنك خياط يقطع الثياب على على مقادير الأجسام»(§§§)، ثمّ اوصى بحسن التهيؤ وإيجاد البواعث لتكون الذريعة لحسن النظم، يقول: « وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه»(****)، فهو يشير

يشير إلى أنّ تألق الإحساس وتوهج الشعور من أهم عوامل النظم وسلاسة الأسلوب وجمال صياغته، ويقول: « ليس يفتح مقفل بحار الخواطر مثل مباكرة العمل بالأسحار عند الهبوب من النوم؛ لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حسها في أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها، وإذ هي مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى؛ ولأنّ السَّحَر ألطف، وأرق نسيماً وهواءً»(*).

إنَّ من الواضح في كلِّ ما ذكر أنَّ أبا تمام يختزل وصايا بشر بن المعتمر ويلبسها ثوباً يتناسب مع شاعريته سواء أكان يزيد على وصايا بشر بما ينبغي في أغراض الشعر وما يناسبها من المعاني أم ينقص بما يتصل بالمنهج وماهيات الوصف، لكنهم يجمعون على أنَّ فراغ البال وشعور النفس بالراحة في الأسحار يدفع الشاعر إلى النظم والإبداع، فهو إذا يئس وساءت أحواله اعتاص عليه كل شيء، وقال ابن رشيق: « سألت شيخاً من شيوخ هذه الصناعة فقلت: ما يعين على الشعر؟ قال: زهرة البستان، وراحة الحمام»(†)، إذ إنّ للصفاء والتمازج مع الطبيعة أثراً بارزاً في دفع الشاعر إلى الإبداع، فـ « صفاء العقل المتولد من النقاهة الذهنية التي يستشعر بها المبدع تثير فيه الإحساس بنبض الحياة وهي نشوة تكون في ازدياد مطرد نتيجة التعلق بالحياة، والمبدع يجد نفسه مدفوعاً بهذه الرغبة الوهاجة تجاه تأمل الطبيعة بوصفها المصدر الأساس الذي يستمد منه مادته الخام»(‡).

ويقول حازم القرطاجني: « يجب للشاعر إذا أراد نظم شعر وكان الزمان له منفسحاً والحال مساعدة أنّ يأخذ نفسه بوصية أبي تمام الطائي لأبي عبادة البحتري في ذلك ويأتم به. فإنها تضمنت جملاً مفيدة بما يحتاج إلى معرفته والعمل بحسبه صاحب هذه الصناعة»(§). فعلى ما يبدو أنَّ حازماً قد أفاد من علم النفس في هذا الجانب « لا يتجاوز تعميق ما سبق أنْ قرره قرره ابن طباطبا من قبل، فطبيعي أنْ يفترض حازم إمكانية أنْ ينظم الشاعر قصيدته وهو قليل الهموم صفر من الغموم».(**) وهذا الافتراض « يتناسب مع الفهم المنطقي الذي يجعل من حركة الإبداع حركة شكلية تتحرك بدوافع باردة خالية من التوتر الذي يؤرق (الأنا) ويصاحب فعلها الإبداعي»(††).

ثم يلتفت حازم إلى مناقضة هذا الفهم لما سبق أن قاله عن البواعث الذاتية للشعر، وما اكده في أنَّ « أحق البواعث بأن يكون هو السبب الأول الداعي إلى قول الشعر هو الوجد والاشتياق والحنين»(‡‡)، أي: لا بد أنْ يكون « الأثر الأدبي يحمل تمام الإحساس به كشكل ديناميكي»(§§)، وتحدث حازم عن مهيئات القول وذهب إلى أنها تحل من خلال جهتين الأولى « النشئُ النشئُ في بقعة معتدلة من الهواء, حسنة الوضع, طيبة المطاعم, أنيقة المناظر, ممتعةٍ من كل ما للأغراض الإنسانية به علقه»(***)، ويرى أنَّ هذا المهيأ كان « موجهاً طبع الناشئ إلى الكمال في صحة اعتبار الكلام محسن الروية في تفصيله وتقديره ومطابقة ما خارج الذهن به إيقاع كل جزء منه في كل نحو ينحى به أحسن مواقعه وأعدلها حتى يكون حسن نشء الكلام»(†††).

أمّا الجهة الثانية عند حازم فهي « الترعرع بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان»(‡‡‡)، فهو يريد قدرة المبدع على حفظ فصيح الكلام، ومن ثم المران والدربة على ألفاظ الفصحاء وعلى الأوزان الخالية من العيوب التي تشينها وتذهب بجمالها.

إنّ هذه الإرشادات أو النصائح مهمة جداً وعلى الشاعر الأخذ بها عند صناعة العمل الإبداعي، فلولا أهميتها لما كانت واحدة او متشابهة عند أغلبهم فهي السبيل المؤدي إلى تقديم عمل إبداعي محكم النسج جزل الألفاظ، له القدرة على التأثير في المتلقي.

الخاتمة

وبعد هذا الجهد المتواضع مع (النصح والارشاد النفسي في النقد العربي القديم) اخلص الى أنَّ علاقة النقد بالنفس البشرية قديمة وليست وليدة العصر، وان اول من عالج علاقة النفس بالابداع بشرٍ بن المعتر (ت ٢١٠هـ) في صحيفته التي اوردها الجاحظ في كتابة البيان والتبيين. ثم تناقلها البلغاء والنقاد، وهي برمتها تكشف عن ذلك النصح العقلي الذي توصلت اليه الذهنية العربية في معالجة قضايا الابداع في ذلك العصر .

ابان البحث عن أن عناصر الابداع الجيد تنحصر في تخير ساعات القول التي يتوافر فيها نشاط النفس وحضور القلب ، إذ أن الابداع يكمن في هوى النفس، وأن النفس لا تجود بمكونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة.

كشف البحث على ان للشعر دواعياً تحث البطيء وتبعث المتكلف. منها الطمع، والشراب ، والشوق ، والطرب ، والغضب.

كما ان له فضلاً عن الاوقات اماكن يصح فيها نظمه.

ابان البحث عن ضرورة الوفاء بحق الغرض، واحضار المعاني المشاكلة للألفاظ، ومراعاة حال المخاطب والتأثير في المتلقي.

كشف البحث عن ضرورة أن يترعرع المبدع بين الفحصاء وأن يتدرب على ألفاظهم السليمة واوزانهم الخالية من العيوب.
كشف البحث عن تاثر النقاد في هذا المضمار تباعاً. اذ ان اغلبهم نصح بالتهيؤ واقتناص ساعة النشاط، وفراغ البال ، واطمئنان النفس ونشوتها

الهوامش

(١) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، د. عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٢: ٢٤.
(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق شرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨ – ١٩٨٨: ١٣٦/١.
(٣) ينظر: الإبداع الشعري إلى نهاية القرن السابع الهجري: ثائر حسن جاسم، دار الرائد العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٧م: ٩٢.
(٤) البيان والتبيين: ١٣٨/١.
(٥) التفسير النفسي للأدب: د. عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨١م: ٤٩.
(٦) الإبداع الشعري: ١٤٠.
(٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ه)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٨١م: ٢٠٧/١.
(٨) ثلاثة جوانب من التطور في دراسة الإبداع: عبد الستار إبراهيم، ط١، د.ت: ٤٠.
(٩) البيان والتبيين: ١٣٦/١.
(١٠) ثلاثة جوانب من التطور في دراسة الإبداع: ٤.
(١١) قضايا الإبداع في صحيفة بشر بن المعتمر، مقال أحمد زياد محبك، مجلة الموقف الأدبي الأعداد (١٨١- ١٨٢- ١٨٣) لسنة ١٩٨٦: ١٣٦.
(١٢) البيان والتبيين: ١٣٦/١.
(١٣) الشعر والشعراء، أبو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٣ه: ٢٣١/١.
(١٤) البيان والتبيين: ١٥٥/١.
(١٥) المصدر نفسه: ١٥٥/١.
(١٦) قضايا الإبداع في صحيفة بشر بن المعتمر: ١٣٧.
(١٧) البيان والتبيين: ١٣٨/١.
(١٨) الإبداع في الفن والعلم، د. حسن أحمد عيسى، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٤، لسنة ١٩٧٦: ٣٢.
(١٩) العمدة: ٢١٤/١.
(٢٠) قضايا الإبداع في صحيفة بشر بن المعتمر: ١٤٠.
(٢١) المصدر نفسه: ١٤٠.
(٢٢) الشعر والشعراء: ٧٩/١.
(٢٣) المصدر نفسه:: ٧٩/١.
(٢٤) المصدر نفسه: ٨٠/١.
(٢٥) المصدر نفسه: ٨٠/١.
(٢٦) ينظر: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ١٤٢.
(٢٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ه) تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م: ٣٤١.
(٢٨) ينظر الصدق الفني في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري، د. عبد الهادي خضير نيشان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٧م: ٣٣١.
(٢٩) الشعر والشعراء: ١/ ٨١- ٨٢.
(٣٠) المصدر نفسه: ٨٠/١، والعمدة: ٢٠٦/١.
(٣١) ينظر الشعر والشعراء: ١/ ٨٨
(٣٢) المصدر نفسه: ٩٥/١.
(٣٣) الوساطة: ١٥.
(٣٤) المصدر نفسه: ١٨.
(٣٥) المصدر نفسه: ٢٧.
(٣٦) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٥٤م: ١٩٦.
(٣٧) ينظر كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد العسكري (ت ٣٩٥ه)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ه: ١٣٣.
(٣٨) المصدر نفسه
(٣٩) المصدر نفسه: ١٣٣.
(٤٠) المصدر نفسه: ١٣٣- ١٣٤.

(٤١) العمدة: ٢٠٤/١.
(٤٢) المصدر نفسه: ٢٠٥/١.
(٤٣) المصدر نفسه: ١١٤/٢.
(٤٤) المصدر نفسه: ١١٤/٢.
(٤٥) المصدر نفسه: ١١٤/٢.
(٤٦) المصدر نفسه: ١١٥/٢.
(٤٧) المصدر نفسه: ١١٥/٢.
(٤٨) المصدر نفسه: ٢٠٨/١.
(٤٩) المصدر نفسه: ٢١١/١.
(٥٠) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي: ٤٢.
(٥١) منهاج البلغاء: ٢٠٢.
(٥٢) مفهوم الشعر: ٤٥٤.
(٥٣) المصدر نفسه: ٤٥٤.
(٥٤) منهاج البلغاء: ٢٤٩.
(٥٥) نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، ترجمة د. إبراهيم الخطيب، بيروت، ط١، ١٩٨٢: ٧٧.
(٥٦) منهاج البلغاء: ٤٠.
(٥٧) المصدر نفسه: ٤١.
(٥٨) المصدر نفسه: ٤٠.

المصادر والمراجع

١. الإبداع الشعري إلى نهاية القرن السابع الهجري، ثائر حسن جاسم، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م.
٢. الإيداع في الفن والعلم، د. حسن مصطفى ، عالم المعرفة، الكويت ، العدد ٢٤ ، لسنة ١٩٧٦ م.
٣. الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، د. عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٢م.
٤. البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق شرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨ – ١٩٨٨.
٥. التفسير النفسي للأدب، د. عزّ الدين إسماعيل دار العودة، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٨١م.
٦. ثلاثة جوانب من التطور في دراسة الإبداع، عبد الستار إبراهيم، ط١، د.ت.
٧. الشعر والشعراء، أبو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٣ه.
٨. الصدق الفني في الشعر العربي إلى نهاية القرن السابع الهجري، د. عبد الهادي خضير نيشان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٧م.
٩. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ه)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٨١م.
١٠. كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد العسكري (ت ٣٩٥ه)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩ه.
١١. محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، د. ابتسام مرهون الصفار،د.ناصر حلاوي وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد ، ط ٢ ، ١٩٩٩م .
١٢. منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤ه) تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
١٣. نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، ترجمة د. إبراهيم الخطيب، بيروت، ط١، ١٩٨٢.
١٤. النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، دار الفكر العربي، ط٢، ١٩٥٤م.
١٥. الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي وشركاه القاهرة، (د.ت).

البحوث والمقالات:

١. قضايا الإبداع في صحيفة بشر بن المعتمر، مقال أحمد زياد محبك، مجلة الموقف الأدبي، الأعداد ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، لسنة ١٩٨٦م.